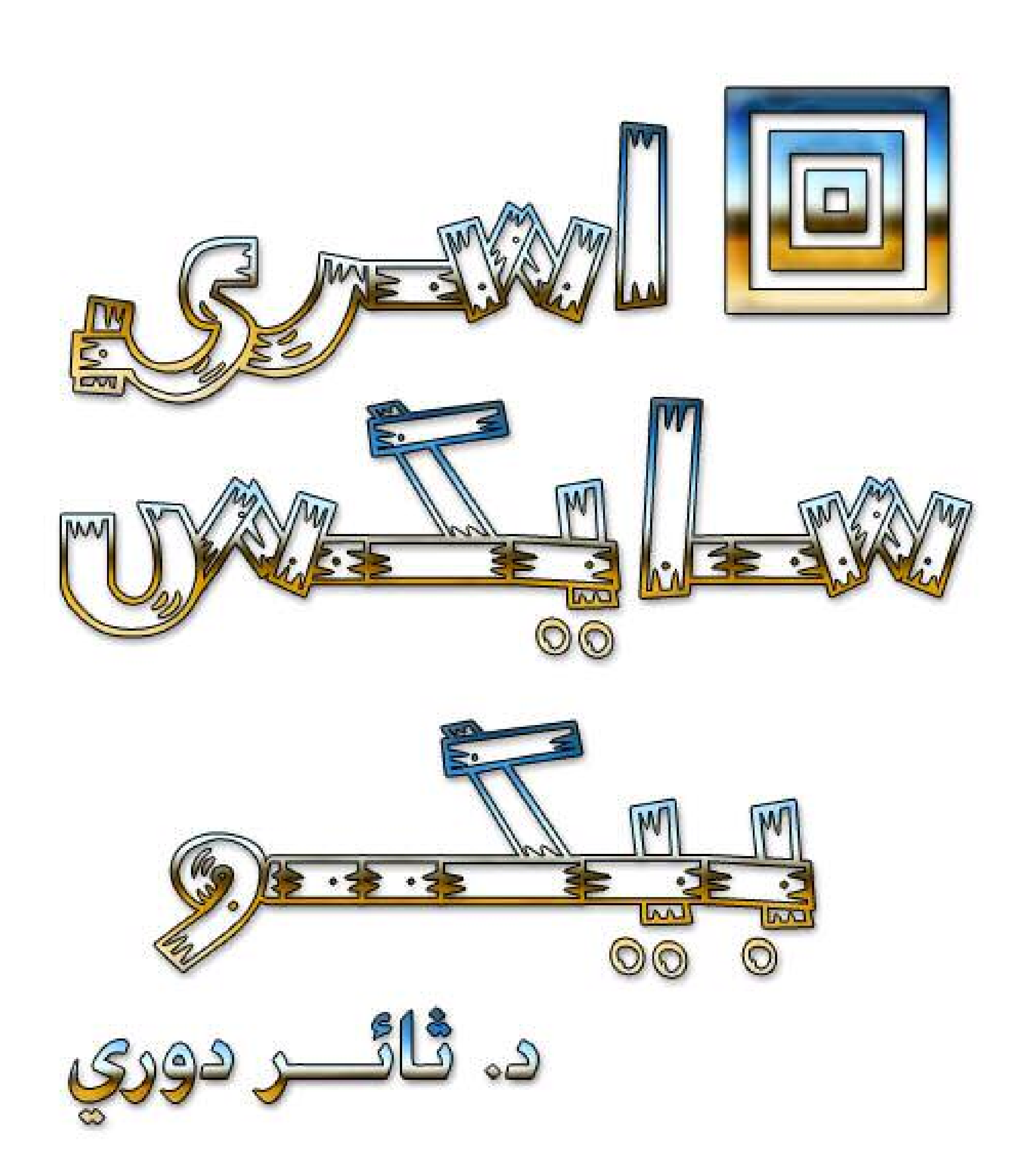

سايكس
بيكو
د. ثائـــر دوري

نشر إلكترونيا في يوليو / تمّوز 2004



المحتويـــــــات



أسرى سايكس بيكو

نواة المشفى الأساسية ، التي بناها الفرنسيون ، هي عبارة عن بناءين متعامدين على شكل حرف (L) وفق الطراز الكولونيالي الذي كان سائداً في ذلك الوقت ، سقوف عالية مغطاة بقرميد أحمر ما زال محافظاً على لونه رغم مرور أكثر من نصف قرن عليه . و يشغل هذه النواة حالياً أقسام أمراض العين و جراحتها و التوليد و الأمراض النسائية و الجراحة العظمية و أمراض الأنف و الأذن و الحنجرة ، و غرف عمليات يطلق عليها الآن ، غرفة العمليات القديمة .

اختار الفرنسيون هذا المكان لأنه كان بعيدا عن المدينة ، وسط بساتين البرتقال القريبة من البحر وزرعوا حوله أشجار صنوبر و نخيل و صفصاف . و بعد الاستقلال ظل هذا المكان أشبه بحديقة إذ كان يتنزه به سكان المدينة أيام عطلهم و في أيام الربيع . لكن في ستينيات هذا القرن بدأ الزحف العمراني ، فاقتربت المدينة رويداً رويداً ، ببطء لكن بثبات ، و في ذلك الزمان أضيف إلى المشفى من الجهة الشمالية مبنى جديد مكون من خمس طبقات ، يشغلها اليوم : قسم الجراحة ، و غرف العمليات الجديدة ، و جناح الأطباء .

بني هذا المبنى و فق طراز المباني السائد عالمياً في الستينيات ، أسقف أقل ارتفاعاً و تمديدات الكهرباء خارجية و لم يحسب حساب المصاعد إلا بعد تعديلات تمت في السبعينيات و بالطبع تم بناء هذا القسم على حساب قطع الأشجار . و في السبعينات أضيف مبنى جديد من الجهة الشرقية مكون من خمس طبقات أيضا على الطراز السائد عالمياً في ذلك الوقت ، لذلك فإن أسقفه أقل ارتفاعاً و تم تزويده بالخدمات من المصاعد إلى تمديدات الكهرباء الداخلية . و أخيراً في التسعينات أضيف قسم الإسعاف من الجهة الغربية . و بهذا تمت إحاطة النواة الأساسية التي بناها الفرنسيون بالمباني فأخفيت تماماً عن عين الناظر الخارجي ، لكن من يدخل إلى المشفى سيكتشف سريعاً أن النواة الفرنسية هي مركز المشفى ، و أن المباني الجديدة رغم حجمها الكبير هي

مجرد إضافات و لا تملك أي انسجام بأنماطها المعمارية المختلفة ، فكل منها يعكس الطراز المعماري السائد عالمياً وقت بنائه . يضاف إلى ذلك محاولات لمهندسين معماريين فاشلين لإضافة لمسة من فن العمارة الإسلامية على هذه المباني ، و ذلك بوضع قوس هنا و آخر هناك فزاد ذلك من تنافر المباني و عدم انسجامها . كما أن أشجار الصنوبر و النخيل انقرضت بسبب القطع المستمر و إحلال كتل الباطون مكانها . لقد تحول المكان إلى كتلة من الباطون و تجاوزته المدينة في توسعها فوصلت المباني إلى شاطئ البحر و صار الشارع الرئيسي يمر من أمام باب المشفى الواقع في الجهة الشرقية .

قال :

- تشويه حقيقي ، كم يشبه هذا المشفى تاريخنا الحديث ، نواة فرنسية و إضافات لا تمتلك أصالة و لا روح مبدعة ، و لا أي انسجام . أبدلنا الأشجار بكتل من الباطون المتنافر و كل ما بنيناه يتمحور على النواة الفرنسية .

نحن أسرى لسايكس بيكو . فالمدن خط مراكزها الفرنسيون و نحن بنينا بشكل مشوه حولها ، القانون مترجم بتصرف عن القانون الفرنسي ، و هذا التصرف هو أسوأ من النقل الحرفي . سمعت اليوم في الأخبار أن بعض أهل جزر القمر يطالبون بعودة الاستعمار الفرنسي .

هز رأسه و قال :

- هكذا استقلال يؤدي لهذه النتائج .

صمت برهة ، ثم كررت من جديد :

- نحن أسرى لسايكس بيكو .



كيف مات عنترة

يقع جناح الأطباء في الطابق الخامس من المبنى الواقع في الجهة الشمالية ، أي مبنى زمن الستينات ، لم يصمم هذا الطابق ليكون سكناً للأطباء ، فهو يضم غرف عادية مثل غرف المرضى في أي طابق . لكن يبدو أنهم تذكروا في اللحظة الأخيرة ضرورة وجود مكان ينام فيه الأطباء فخصصوا هذا الطابق لهذه المهمة . وضعوا في كل غرفة عدة أسرة و طاولة حديدية للدراسة و خزانات حديدية أيضاً . و أفردوا غرفة كبيرة سميت استراحة الأطباء تضم طاولة كبيرة يتناول الأطباء عليها طعامهم مع بضع كراسي هي اليوم مهترئة أو في طريقها للإهتراء ، و جهاز تلفاز يعمل بشكل متواصل على مدار أربع و عشرين ساعة لذلك سرعان ما يتعطل و من ثم يتعذر إصلاحه ، فيتم طلب شراء جهاز جديد و بعد سنة أو أكثر يوافق رئيس المشفى ، ثم يوافق مدير الصحة على ذلك فتشتري لجنة الشراء جهازا جديداً و تتلف القديم . و لم تعد هذه الاستراحة تستعمل لتناول الطعام لأن أغلب الأطباء يتناول الطعام في الغرف .

و مع ازدياد عدد الأطباء ازداد عدد الأسرة و الخزانات الحديدة داخل كل غرفة حتى اكتظت بها و صارت الحركة بداخلها شبه مستحيلة . لقد تم قبول أعداد ضخمة من الأطباء لمتابعة اختصاصهم في المشفى أول التسعينيات ، دون أن يتم توفير أماكن لسكنهم أو لنومهم فاكتظ الجناح بهم و حشروا حشرا داخل الغرف . يقال إن الوضع في جناح الأطباء كان جيداً فيما مضى ، يوم كان عدد الأطباء قليلاً ، فكل طبيبين كانا يحصلان على غرفة مستقلة ، و إذا تزوج الطبيب بإحدى زميلاته يحصلان على غرفة خاصة ، أما اليوم فداخل كل غرفة يسكن أكثر من ستة أطباء ، و هذا العدد يتغير كل مرة حسب مناوبات الأطباء ، و ليس هناك شيء خاص لأي طبيب . فالطبيب الموجود يستعمل السرير الفارغ ، لذلك تم تقسيم الغرف حسب الاختصاصات فغرفتنا ، مثلا ، يستعملها كل أطباء الداخلية الذين يربو عددهم على العشرة . حيث يناوب كل يوم ثلاثة منهم ليغطوا أقسام الداخلية و الإسعاف في المشفى .

إن أشد فترات الزحام في الجناح تحدث عند انتهاء الدوام ، حيث يجتمع كل الأطباء و عددهم أكثر من مائة طبيب و أكثرهم يرغب بتناول طعام الغداء ، الذي يعده طباخ الجناح أبو خالد .

لقد أصاب الصدأ و الاهتراء كل شيء في هذا المكان بدءاً من الأبواب و النوافذ و انتهاء بالطباخ أبي خالد ، الذي صار منفوخا كالكرة لا يقوى على رفع قدميه عن الأرض بل يجرهما جراً . أشعث الشعر قذر الهندام لم يشاهده أحد حليق الذقن بتاتاً . قالوا إنه كان نقيض ذلك فيما مضى فقد كان شاباً نـحيلاً نشيطاً عندما التحق بالعمل ، ثم انـحدر إلى هذا الوضع بعد أن بقي في عمله هذا عشرين سنة كاملة .

إن موقعه كطباخ في جناح الأطباء امتياز يحلم الكثيرون به ، إذ توضع تحت تصرفه كل صباح مخصصات إطعام أكثر من مائة طبيب و لابد أنه يأخذ منها بغير حساب فلا رقيب عليه ، و يمكن القول بثقة أن أحداً ما في إدارة المشفى يتركه في موقعه مقابل تقاسم هذه الامتيازات ، و هذا ما جعله واثقاً من عدم قدرة أي شخص على زحزحته من وظيفته لذا تراه يتصرف باستهتار كبير ، إذ كثيراً ما شوهد خارجاً من دورات المياه بعد أن ينظفها لينهمك فوراً بإعداد الطعام . و عندما احتج الأطباء على ذلك مطالبين بتخصيص مستخدم آخر ليقوم بأمور النظافة كان جواب مدير المشفى :

-لا يوجد اعتمادات مالية للقيام بذلك .

و لم ينس أن يذكرنا بظروف المشفى المالية الصعبة .

إن الشكاوى المتتالية غير المجدية أشعرت أبا خالد بمزيد من الثقة فصار يتعامل مع الأطباء بلا مبالاة و عدم احترام و صار قانونه قانون كل العاملين في المشفى :

– افعل ما يحلو لك فلن يعاقبك أحد .

لذلك يضطر الأطباء لاستجدائه أو التعامل معه بالنكتة و المزاح . أما إذا عامله أحدهم بشكل رسمي ، بمعنى أني أنا طبيب و أنت طباخ و مهمتك أن تقدم الطعام لي فلن يحصد إلا الخيبة و سيضع أمامه ما لا يحصى من العراقيل ، و هذا هو التعامل السائد بين كل الأطراف في المشفى من الإداريين إلى الممرضات إلى الأطباء . كل شخص يفعل ما يحلو له دون وجود قانون يلزمه بأداء واجبه . فعلى سبيل المثال تنـحصر مهمة الطبيب بأن يفحص المريض و يشخص حالته المرضية ، ثم يكتب العلاج المناسب على الإضبارة . و بعد ذلك تبدأ و بشكل تلقائي مهمة الممرضة ، التي عليها أن تطبق العلاج الذي وصفه الطبيب . لكن لا شيء يضمن لك أن تفعل الممرضة ذلك ، لذا على الطبيب أن يطلب منها بأدب و بطرقه الخاصة و ربما احتاج أن يستجديها لتفعل ذلك ، و حذار ثم حذار أن تقع في وهم العلاقة الرسمية . كأن تحسب أن الممرضة مجبرة بحكم عملها على تنفيذ ما تطلبه منها ، عند ذلك سيبقى المريض بدون علاج مهما كانت حالته خطيرة . جرب و اشتكي ، سيقولون لك ارفع كتاب شكوى حسب التسلسل إلى رئيس الشعبة التي وقعت بها المشكلة ، ثم إلى رئيس قسم الداخلية ، و من ثم إلى مدير المشفى الذي لا يستطيع البت بالمشكلة قبل أن يستمع إلى رأي الممرضة التي تتبع هيكلية هرمية أخرى تبدأ برئيسة الشعبة ، ثم رئيسة التمريض

للوقت الذي تداوم به . ثم رئيسة التمريض العام و بعدها المدير الإداري . ثم رئيس المشفى . و سيحضر التحقيق ممثل اللجنة النقابية . التي تدافع عن الممرضة في كل الأحوال . حتى لو كانت مذنبة . و في النهاية لن ينتج عن هذه الشكوى شيء . لذلك اختصارا للجهد و الوقت قال لنا رئيس قسم الداخلية عندما التحقنا بالمشفى :

- استجدوا الممرضة . ابتسموا لها . و إذا تطلب الأمر و رفضت لا تجادلوها . بل قوموا بعملها فربما تخجل منكم .

أما رئيس القسم فهو شخصية غريبة و مثيرة للاهتمام . قصير القامة . يحلم بأن يطور العمل فيبتدع كل يوم أفكاراً جديدة. لكنها غير مدروسة و مرتجلة . ثم يطبقها رغم اعتراضات المحيطين به . و رغم عدم توفر الإمكانيات الواقعية لتطبيق أفكاره . يصر عليها شهراً أو شهرين ثم يخبو اهتمامه بها فتموت فكرته و لا يعود أحد لذكرها .

عند التحاقي بالمشفى كان متحمساً لفكرة الاجتماع الصباحي لمناقشة أمور مناوبة الليلة السابقة . حيث يقدم الطبيب المناوب تقريراً عن مناوبته ثم تتم مناقشة الحالات الجديدة . في البدء كان الاجتماع يدوم نصف ساعة و بعدها بدأ يضمر تدريجياً حتى وصل إلى خمس دقائق هذه الأيام . أي أنه اقترب من الموت . لكنه ما يلبث أن يبتدع فكرة جديدة . هذه هي تركيبته الشخصية . ربما ما زال يحسب أنه يمارس الطب في مدينة نيس الفرنسية . حيث اختص . فهناك تتوفر وسائل التشخيص و المعالجة بشكل أكبر . أما نحن فلدينا مخبر متواضع الإمكانيات و الاختبارات التي يجريها تعود لمرحلة الستينات . كما أن الدخل المادي المتواضع للعاملين في المشفى من أطباء و ممرضات يقف عائقاً في وجه تطوير العمل . فالممرضة تتقاضى ثلاثة آلاف ليرة مقابل عمل هو من أصعب الأعمال . أما الأطباء فحياتهم عبارة عن ركض دائم و يومهم موزع بين المشفى و العيادة الخاصة . و في هذه الحالة يتحول المشفى إلى مكان للبحث عن الشهرة أو لاصطياد مريض و بالتالي لا يوجد أي هاجس علمي أو رغبة بتطوير المعارف .

شخصيته تثير الابتسام عن بعد إن لم يكن الشفقة فهو مخلص في عمله لا يبحث عن منفعة شخصية كل ما يهمه هو تطوير العمل و مصلحة المرضى . لكنه يصطدم بما لا يحصى من المعوقات فيتحول إلى إنسان غير مفهوم أو إلى شخص غريب الأطوار . يقوم كل مساء بزيارة إلى المشفى و هذا يشكل عبئاً كبيراً على الطبيب المناوب . إذ أنه يختار أوقات الذروة حين يتوافد المرضى زرافات زرافات ليقوم بجولة على الأقسام و على الطبيب المناوب أن يترك ما بين يديه من عمل و أن يرافقه ليستعرض معه الحالات المرضية الموجودة و فجأة يخطر له أن يناقش معك بلغة إنكليزية غير سليمة الحالة المرضية . أو يخطر له أن يشرح للممرضات آلية عمل جهاز فحص

السكر الفوري . هذا جهاز عظيم بنقطة واحدة من الدم تحصلين على قيمة السكر في الدم خلال ستين ثانية و يبدأ بشرح آلية عمله . و لو أنه أعاد الشرح ألف مرة للممرضة فهي لن تتعلم لأنها صممت منذ تخرجها من مدرسة التمريض أن لا تتعلم شيئاً جديداً و هي أصلاً لم تتعلم في المدرسة إلا النذر اليسير .

تنحدر أغلبية الممرضات من بيئات اجتماعية فقيرة . فقد انتسبن إلى مدرسة التمريض لأنها تقدم راتباً أثناء الدراسة ، كما أنها تتكفل بكل مصاريف الفتاة من نوم و طعام وشراب . و داخل المدرسة لا يوجد فصل بالأعمار ، حيث تتراوح أعمار الطالبات بين الخامسة عشرة و الخامسة و العشرين إذ أن بعضهن انتسبن بعد الحصول على شهادة الدراسة الإعدادية ، و أخريات بعد الحصول على شهادة الدراسة الثانوية . و يؤدي هذا الاختلاط غير المراقب في أجواء داخلية مزدحمة بعيداً عن توجيه الأهل ، حيث أن اغلب الفتيات ينتمين لأسر لا تستطيع أن تقدم لهن من الناحية الروحية أو النفسية أي شيء . يؤدي هذا الاختلاط إلى تشوهات نفسية و انحرافات حقيقية . فتنخرط الفتاة بعلاقات عاطفية مبكرة ينتج عنها صدمات نفسية لا تستطيع الفتاة تفسيرها أو استيعابها و بالتالي تؤدي إلى شروخ نفسية هائلة . و أغلب الممرضات من غير المتزوجات لهن عشيقاً ، و بعضهن يرافقهن العشيق إلى المشفى و يبقى معها طيلة الدوام لكن هؤلاء عددهن قليل لحسن الحظ . هناك واحدة في جناح العناية المشددة تداوم في الوردية الليلية مع مرافقها طيلة الليل و ثانية في قسم الداخلية . و قبل أشهر كان شخص يلازم ممرضة في قسم العمليات و اكتشفوا فيما بعد أنه كان يسرق من الأدوات الجراحية و يبيعها في السوق .

حدث قبل عدة أيام أن دخلت شابة مصابة بحادث وعائي – دماغي . و هذا يعني إما إصابتها بنزف في الدماغ أو بجلطة ، أي خثرة في الدماغ . و هاتين الحالتين المرضيتين ينتج عنهما نفس الأعراض لكن طرق المعالجة مختلفة . و لا نستطيع التمييز بينهما إلا بواسطة تصوير الدماغ بجهاز تصوير طبقي محوري و هذا لم يكن متوفراً في المشفى ، و لا يملك الأهل نقوداً لإجراء هذا التصوير المكلف خارج المشفى ، لذلك اعتبر طبيب الداخلية المعالج هذا نزفاً و عالجها على أساس ذلك . و صدف أنها أصيبت بحادث دماغي آخر أثناء وجودها في المشفى فذهب إليها طبيب القلبية المتحالف مع رئيس القسم و هناك اكتشف وجود اضطراب بنظم القلب و معروف أن هذا الاضطراب يطلق خثرات من الدم إلى الدماغ ، فاعتبر رئيس القسم و طبيب القلبية أن اضطراب نظم القلب هو سبب ما جرى مع المريضة فقررا أن المريضة بحاجة لمميع دم ، و شهرا بالطبيب المعالج على الملأ و اعتبراه مسؤولاً عن تدهور حالة المريضة .

رفض الطبيب المعالج هذه التهمة و أعلن أنه لا يستطيع أن يقرر هل المريضة مصابة بخثرة في الدماغ أم بنزف إلا بناءا على التصوير الطبقي المحوري . فهاجمه طبيب القلبية

على الملأ معتبراً أن هذا الكلام هروباً من المسؤولية و أن الطب في العالم الثالث يمارس بناءاً على التوقعات . و كحل وسط أصر الأطباء غير المتحالفين مع رئيس القسم على إجراء التصوير في مشفى حكومي آخر يملك هذا الجهاز لتبيان الحقيقة . و بدوره وافق طبيب القلبية و رئيس القسم على هذا الحل لأنه من المستحيل أن يكون تشخيصهما خاطيء فكل المعطيات المتوافرة تقف مع استنتاجهما . و بالتالي فإن الطبيب المعالج قد أخطأ عندما لم يعطي المريضة مميعاً للدم .

لكن نتيجة التصوير كانت مفاجئة لرئيس القسم و لطبيب القلبية إذ تبين أن ما تشكو منه المريضة سببه وجود ورم في الدماغ و قد بدأ ينزف و جاءت الفرصة مواتية لأعداء رئيس القسم للانقضاض عليه فاشتكوا لرئيس المشفى و لمدير الصحة. و هذا أمر سيترتب عليه نتائج خطيرة على وضع رئيس القسم في المستقبل ز و قد أدرك ذلك على الفور بعدما أخبرته بنتيجة التصوير فامتقع وجهه و اصفر لونه و قال لي :

- لا شك أنك تمزح .

و عندما أكدت له الأمر غادر المشفى على الفور . و للإنصاف فإن نتيجة التصوير كانت غير متوقعة على الإطلاق و مخالفة لكل الحسابات المنطقية و لا تحدث إلا كاحتمال نادر . لكن هذه هي طبيعة مهنة الطب غير المتوقع و النادر هو الذي يحدث في الظروف الصعبة ....

خلال فترة وجيزة نشأت بيني و بين أبي خالد ، طباخ الجناح ، علاقة خاصة لأني أحضر إلى المشفى باكراً فأجده جالساً في الاستراحة لم يباشر عمله بعد لأن طعام الفطور لا يوزع قبل الثامنة و النصف و تدريجياً دخلت عالمه ، كان مفتوناً بقصص عنترة بن شداد و قد سمعت منه قصصاً أسمعها للمرة الأولى في حياتي و منها قصة مقتل عنترة .

قال أبو خالد :

- كان لدى عنترة حاجب يثق به كثيراً لكن هذا الحاجب خانه ، إذ اشتراه أعداء عنترة ((بالدورارات)) فأدخلهم إلى مخدع عنترة ليلاً ليقتلوه و هو نائم ، لكن عنترة استيقظ في آخر لحظة و استطاع القبض عليهم فاعترفوا أنهم ينوون قتله و أن الحاجب هو من أدخلهم بعد أن اشتروه ((بالدورارات)). قتلهم عنترة على الفور و أمر بسمل عيني الخادم ليعيش بقية حياته أعمى .

ترك الحارس الأعمى ديار عنترة و التحق بقبيلة تعيش على الفرات و هناك تعلم الصيد بالقوس و النشاب اعتماداً على حاسة السمع ، كان يسمع صوت طيران الطائر فيصوب إليه فيرديه قتيلاً . لقد أجاد مهنته الجديدة إجادة قل نظيرها . و ذات مرة كان يصطاد على الفرات فسمع صوت رجل يبول على الجانب الآخر من الفرات ، فعرف مباشرة أنه عنترة ، أي أنه عرف عنترة من صوت بوله . سدد القوس و رماه فأصابه بخصيته و أرداه قتيلاً .

إن أبا خالد من المعجبين بشدة بقدرات عنترة بن شداد الجنسية فقد أخبرني أن عنترة كان يقاتل كل يوم من الصباح و حتى المساء ثم يعود لينام مع عبلة سبع مرات و ذات مرة بعدما عاد لينام مع عبلة حدث الغزو ، فارتدى ملابسه و ذهب ليرد الغزو و بقي يرد الغزو حتى منتصف الليل و عندما عاد لم يستطع أن ينام معها سوى أربع مرات ، فسألته عبلة :

- ما بك ؟

قال لعبلة :

– ألم تري أننا نحارب منذ الصباح .

قال إن اللهّ لم يخلق من هو أقوى من عنترة بن شداد . ذات يوم كان أحد الأتقياء يحارب في سبيل اللهّ فهُزم و فر و في طريق هربه ظهر له الخضر .سأله عما به فشرح له الرجل أمره . طلب الخضر منه أن يعود إلى المعركة و إذا أحس بنفسه مهزوماً فلينادي في المقبرة :

- يا عنترة بن شداد و عندها ستأتيه النجدة .

عاد الرجل إلى المعركة و عندما اقترب من الهزيمة . فعل ما أمره به الخضر و نادى على عنترة ، فخرج من المقبرة مائة رجل لكنهم لم ينفعوه بشيء . فر الرجل من جديد ، و ظهر له الخضر ثانية ، و سأله عما جرى . فأخبره الرجل . ضحك الخضر و قال له :

- هل ناديت يا عنترة ، أم يا عنترة بن شداد ؟

قال الرجل :

- بل يا عنترة .

قال الخضر :

- عد و نادي يا عنترة بن شداد .

عاد الرجل و صرخ يا عنترة بن شداد فخرج عنترة على فرسه و قاتل معه حتى انتصر الرجل .

عندما انتهيت من رواية القصة لطارق و نحن تناول طعام العشاء حيث كنا مناوبين ، ضحك حتى طقت خواصره ، ثم قال :

- الأشياء متناسبة مع بعضها . مشفى بدائي ، و جناح أطباء بدائي مع طباخ بخيال بدائي....

و قبل أن يكمل كلامه سمع نداءاً من الإذاعة الداخلية للمشفى يدعوه للتوجه إلى قسم الإسعاف ، ضحكت و قلت له :

- الآن ستخوض تجربة بدائية ، هيا انزل اصعد خمس طوابق على قدميك لأن المصعد معطل .

و اقترحت عليه أن أنادي أم وليد مساعدة الطباخ أبو خالد لتساعده .

لم يفهم بما ستساعده أم وليد . فشرحت له :

- ستعطيك تفاحة علّك تهبط دفعة واحدة من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضي .

ضحك من جديد و هو يزر أزرار مريوله الأبيض . قال :

- أتظن أن هذا الجناح هو الجنة ؟

– لا و لكن أريد أن أرحم آدم من الصعود و النزول على قدميه .

ضحك من جديد و قبل أن يغادر الغرفة قال :

- حتى أنت صار خيالك بدائياً .

صححت له :

- قل أسطوريا .

و قبل أن ينزل على الدرج قال :

- لا فرق . لا فرق ....

يتركز عمل الأطباء المقيمين في قسم الداخلية في المشفى على عدة محاور فهم يتوزعون على أقسام الداخلية المختلفة أثناء الدوام الرسمي ، و هي قسم أمراض الغدد الصم و قسم الأمراض الداخلية بشعبتيه للنساء و للرجال ، و قسم إسعاف الأمراض الداخلية ،الذي يتجاور مع إسعاف الأمراض الجراحية ، و هناك قسم للعناية المشددة و الأمراض القلبية . و بعد أن ينتهي الدوام الرسمي يذهب الأخصائيون بينما يغطي الأطباء المقيمون المناوبون ، و عددهم إما اثنين أو ثلاثة كافة الأقسام . و هذا يجعل العمل المنوط بكل طبيب كبيراً إلى حد لا يطاق

إن كل قسم من أقسام المشفى عالم قائم بذاته بمرضاته و طريقة تفكير أطبائه و نوعية مرضاه . لكن يبقى الإسعاف هو الأكثر غنى و إثارة لأن مرضاه شديدو التنوع و نوعيتهم تتغير تبعاً لأوقات اليوم . فمراجعو النهار غير مراجعو الليل . ففي النهار يأتي سكان الأرياف البعيدة و الحوادث الخطيرة من المدينة . و على عكس ما يظن المرء ، فالمراجعات ليلاً تكاد تقتصر على الحالات الباردة ، التي لا تحتاج لتدبير اسعافي و معظم هؤلاء من سكان المدينة ، مثلاً ، يأتي رجل أربعيني في الثانية صباحا ليوقظك من نومك ، ثم يقول لك إن مفصل الركبة يؤلمه منذ شهرين . أو تأتي سيدة في الثالثة صباحاً لأنها راجعت طبيباً خاصاً منذ الصباح و قال لها إن طفلها يحتاج إلى الاستشفاء فلم يخطر لها أن تراجع المشفى إلا في هذا الوقت ، و عجوز تسعل منذ شهر أحضرها أولادها في الرابعة صباحاً .

أما مراجعو أيام العطل الرسمية فنموذج آخر . يجلس الناس في بيوتهم بدون عمل أيام العطل فيتحول انتباههم بشكل مكثف نحو الذات . قال طارق إن سبب ذلك يعود إلى أن الناس غير مرتاحين في حياتهم فأوقات الفراغ تردهم إلى ذواتهم المتخاصمين معها و يتظاهر الأمر بشكايات مراقية فتتضخم شكايات بسيطة في عقول

أصحابها فيراجعون المشفى . جاء رجل يوم الجمعة ليشكو أن ظهره يؤلمه منذ عشر سنوات . و آخر قال إن خاصرته تؤلمه منذ شهر .

فقد الممرض أعصابه و بدأ يشرح للمراجعين معنى كلمة إسعاف . إسعاف يعني حالة طارئة لا تحتمل التأجيل . بعد قليل دخل رجل بدين و هو يشير إلى إصبعه المخدوشة فتنهد الممرض بتذمر . قلت ضمد له إصبعه . سأله الممرض عن مكان سكنه فذكر المريض مكاناً بعيداً جداً عن المشفى . قال الممرض :

– هذا جيد كي تتحرك المدينة و تشتغل السرافيس .فلا تتعطل مصالح الناس .

و في أحيان كثيرة يغيب دور الإسعاف بسبب نقص الأدوية أو التجهيزات فلا تستطيع تقديم أي شيء لمريض يحتاج إلى خدمات إسعافية بشكل جدي . كما حدث معي قبل أيام .

استيقظت على جرس الهاتف رفعت السماعة . كان المتكلم قسم الإسعاف . يريدني الممرض أن أنزل . نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الخامسة و الربع صباحاً . و حانت مني نظرة إلى الشارع المغسول بالمطر لقد توقف مطر البارحة و بانت جمالية اليوم الذي يلي المطر .

في الإسعاف و جدتها سيدة أربعينية تتلوى من الألم و في الخارج صوت محرك سيارة يعمل . هي سيارة الأجرة . شرح لي السائق أنهم قادمون من بيروت و عند مدخل المدينة بدأت الراكبة تتلوى و تصرخ من الألم . أسعفها إلى المشفى قبل أن يوصل الركاب إلى بيوتهم . فحصتها بشكل سريع . كان التشخيص واضحا فالمريضة مصابة بنوبة شقيقة و لديها سوابق بخصوص هذا المرض . طلبت من الممرضة أن تعطيها إبرة مسكن . ردت الممرضة أنه لا يوجد أي مسكن ألم في المشفى منذ البارحة . أسقط من يدي فكتبت لها وصفة بمسكن الألم و طلبت من السائق أن يحضرها . قال السائق :

- من أين سأحضر الدواء في هذا الصباح الباكر ؟

أبديت أسفي و تعاطفي معه لأنه لا يوجد أي مسكن في المشفى .

قال السائق :

- هل ما تقوله معقول ؟ ما الفائدة من حضورنا إلى هنا إذاً ؟!

لم أجد ما أجيبه به . تابع تأنيبه لي :

- انتظرناك نصف ساعة لتكتب لنا ورقة .

- صدقني الذنب ليس ذنبي .

نهضت المريضة التي ما زالت تتلوى من الألم بمساعدة السائق و غادرا و هما يشتمان المشفى .

صعدت إلى الغرفة لكني لم أستطع متابعة نومي لقد طار النوم من عيوني جهزت كوباً من القهوة و جلست أقرأ و أدخن . استيقظ طارق بعد قليل بسبب رائحة الدخان ، قال :

- ما الذي دعاك لتستيقظ باكراً بهذا الشكل ؟

حدثته بما جرى ، فشتم المشفى بدوره و تذكرنا سوياً المفارقة المؤلمة المتمثلة بتوفر إبر الستربتوكيناز الحالة للخثرة و التي تعطى في الساعات الأولى لإحتشاء عضل القلب و يبلغ ثمن الواحدة منها ، على ما أخبرنا به طبيب القلبية ، أحد عشر ألف ليرة للإبرة الواحدة و عدم توفر إبرة مسكن ثمنها خمس ليرات ، إضافة إلى أن إبرة الستربتوكيناز مشكوك بفعاليتها !! لا بد أن في الأمر لعبة تجارية و عمولات ضخمة حتى اشترت وزارة الصحة هذا العدد الكبير من هذه الإبر باهظة الثمن في حين أنها تعلن عجزها عن شراء إبرة مسكن بخمس ليرات .

أو عندما انقطعت المياه لمدة ثلاثة أيام . يومها دخلت مريضة لديها قصور كلوي مزمن . حاولت أن أخدمها بأي شيء فلم أفلح . في البداية قالوا لي المياه مقطوعة و بالتالي يستحيل إجراء الفحوص الدموية . قلت على الأقل نجري فحصاً لخضاب الدم و هو فحص لا يحتاج إلى توافر الماء . أجابت فنية المخبر :

– الأنابيب الشعرية غير متوفرة .

قلت :

- نجري للمريضة المصابة بقصور كلوي مزمن تخطيطاً كهربائياً للقلب .

قالت الممرضة :

– جهاز التخطيط معطل و لا يوجد في المشفى سوى جهاز واحد في العناية المشددة و لا نستطيع إخراجه من العناية المشددة إلا بموافقة رئيس المشفى .

سمعت نداءاً عبر إذاعة المشفى الداخلية لطبيب القلبية المناوب كي يحضر إلى الإسعاف .

قلت للممرضة :

- منذ قليل مر طبيب القلبية و دخل إلى العناية المشددة .

قالت :

- هذا ليس الطبيب المناوب و لا يحق له أن يشاهد المريض .

بعد قليل نداء آخر لطبيب القلبية المناوب . قال طبيب العناية المقيم إن المريض مصاب بافتراق أذيني بطيني و يحتاج إلى تركيب ناظم للخطى بشكل فوري . قلت لم لا يركبه الطبيب الموجود في العناية . قال لي إنه ليس الطبيب المناوب و إذا تدخل و قام بتركيب ناظم الخطى لهذا المريض سيزعل طبيب القلبية الآخر . نداء ثالث لطبيب القلبية المناوب . ثم صمت . قال طبيب العناية المقيم :

- لقد توفي المريض .

إن القصص الاجتماعية التي نحتك بها في المشفى لا تنتهي ، بعضها مأساوي و أخرى ذات طابع كوميدي كما في قصة السيدة حياة ، التي تشبه حبكتها حبكة أفلام آخر الستينات و أول السبعينيات للأفلام المصرية القائمة على المصادفة البحتة و النهاية السعيدة فقد دخلت السيدة حياة إلى المشفى قبل أربعة أشهر ، أي منذ الشهر الخامس لحملها ، و سبب ذلك أن قلبها متعب و لم يعد يستطيع أن يغذيها هي و الجنين لأنها مصابة بآفة في أحد دسامات القلب و قد حرم عليها الأطباء الحمل و الولادة إلا أنها كانت تكررها في كل مرة على أمل أن تنجب الذكر ، هكذا حتى صار لديها ست بنات و هذا هو حملها السابع .

هذه المرة تفاقمت أمورها كثيراً فاقترح عليها الأطباء أن تتخلى عن الجنين ، لكن الإيكو تنبأ لها بذكر فقررت أن تحتفظ به مهما كانت النتائج . وخلال أربعة شهور كانت تصل إلى الموت يومياً فيضيق نفسها و لا تقدر على الاستلقاء فتنام بوضعية الجلوس بعد أن نزودها بالأكسجين . لا أعتقد أن سيدة تعذبت بحملها كما تعذبت هذه السيدة ، كما أنها أرهقت الأطباء و الممرضين خلال أربعة شهور كاملة . و أخيرا حان وقت ولادتها . قرر الأطباء أن قلبها المتعب لن يحتمل التخدير العام لذلك ستتم ولادتها بعملية قيصرية و دون تخدير بالطريق العام بل بالتخدير القطني . استنفر المشفى كله لإتمام ولادة حياة و بينما هي في غرفة العمليات و أهلها وزوجها متوترون يترقبون الأخبار من الداخل ، جاء من يخبر الزوج أن دكانه قد سرق ، فسقط الرجل غائباً عن الوعي من فوره . بدأنا بإسعافه فخرج طبيب القلبية من غرفة العمليات و نقلناه إلى غرفة في جناح التوليد و علقنا له مصلاً و بفحصه تبين أنه يعاني من نوبة من ارتفاع التوتر الشرياني ، ثم أجرينا له تخطيط قلب كان مبهم النتيجة فطلبنا منه أن يلزم السرير ريثما نعيد التخطيط بعد ساعتين . خلال ذلك ولدت حياة الذكر الموعود لكن أهل الزوج و الزوجة لم يستطيعوا أن يزغردوا بسبب قلقهم على صحة الزوج . بعد ذلك تبين أن قلب الزوج سليم و نهض من سريره عندها زغرد أهله فرحين بالذكر ، لكن حزنه بسبب سرقة دكانه لم يفارقه .

و يوم خروجهم من المشفى أحضروا طبلاً و زمراً و دبكوا في ساحة المشفى الداخلية ووزعوا الشراب و الشوكولا على كل رواد المشفى و أخيراً خرجوا برتل من الآليات من سيارات و عربات بثلاث عجلات (طرطيرات) مطلقين زمامير مركباتهم . كان طارق ، الذي ما زال يتصرف كغريب عن البلد ، مدهوشاً بما يجري أمام ناظريه . قلت له :

- هل رأيت مثل هذا في بلغاريا ؟

قال :

- عشت في بلغاريا سبع سنين حرصت خلالها على تسجيل يومياتي ، لكن كل ما كتبته ورأيته هناك في سبع سنين لا يعادل ما رأيته في شهر واحد في هذا المشفى .

قلت له :

- هذا طبيعي في أوربا البشر منمطون ، نسخ مكرورة . أما عندنا فكل إنسان مختلف عن الآخر و كل شخص له قصة مختلفة .

قال لي :

- ألا يعبر هذا عن الاضطراب العميق الذي يعيش به مجتمعنا .

قلت له :

– ربما لكن أليس هذا أفضل من أن يكون البشر نسخ مكرورة كأنهم منتجون بالجملة ؟

و هناك قصص تجزم بعدم إمكانية حدوثها لكنها تحدث كقصة تلك المرأة الأربعينية التي حضرت مع زوجها ، الذي يبدو إنه يكبرها بخمسة عشر عاماً على الأقل ، قالت إنها الزوجة الثانية و أنها متزوجة منذ خمس سنوات و لم تحمل حتى الآن . في قسم النسائية اكتشفوا أنها ما زالت عذراء .

أو ذاك الشجار العائلي الذي انتهى نهاية مفجعة فعندما رأيته في قسم الإسعاف كان يتلوى ألماً لقد كانت إصابته بليغة جدا ، شرح لي مرافقه ، و عرفت أنه محاميه و قد أصيب معه لكن إصابته كانت طفيفة . قال المحامي إن زوجة الرجل سكبت على وجه زوجها الأسيد أمام قوس المحكمة بعد أن حكم له القاضي بالطلاق و بحضانة الأولاد . لقد فقد الرجل إحدى عينيه و تشوه وجهه بشكل تام بسبب ذلك .

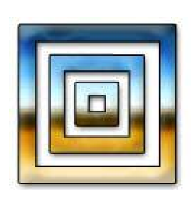
و هناك مفارقات نراها كل يوم دون أن ننتبه لها حتى يأتي شخص ما و ينبهنا لأهميتها . كما في مفارقة لقاح داء الكلب ،فقد أخبرنا أحد الأطباء أن كلفة تلقيح الفرد ضد داء الكلب تبلغ ألفاً و خمسمائة فرنك فرنسي ، أي أكثر من عشرة آلاف ليرة ، أي أن الدولة تصرف على شخص عضه كلب أكثر من عشرة آلاف ليرة في حين أن هذا الفرد يأكل و يشرب و يتزوج و ينجب و يسكن بأربعة آلاف ليرة تمنحها له الدولة و أنا متأكد لو أنهم خيروا أي معضوض بين أن يأخذ ثمن اللقاح أو اللقاح لاختار النقود حتى و إن كانت نسبة الخطورة خمسون بالمائة !!

قلت لطارق إن كثيراً من المفارقات التي تحدث في المشفى تستحق أن تسجل كقصص قصيرة .

قال لي :

–هي شمر عن ساعديك و ابدأ الكتابة .

أكدت له أني سأفعل .



الشهيد

قال لي :

- لقد كنت شهيداً .

كأن أحداً قد هزني فاستيقظت من غفوتي . نظرت إلى وجهه مطولاً رغم اني لا أفعل ذلك عادة بسبب الزحام و عدد المرضى الهائل الذي يراجع قسم الإسعاف . بل إن العمل يكتسب طابعه الميكانيكي .فحص سريع للمرضى ثم كتابة للوصفة . أما إذا شعرت أن الحالة جدية فأقبلها في المشفى لأعطيها دقائق إضافية . بت مشدوداً لأصغي لحديثه . تابع :

- حاربت في لبنان ست سنوات ، ثم فُقدت ، فاعتبرني الجيش الذي كنت أخدم في صفوفه شهيداً و عندما عدت و جدت أبي قد قبض ثمني شقة و مصاري . أخذت المصاري من أبي و تركت له الشقة .

سكنت عند امرأة عجوز ربتني بعد وفاة أمي وزواج أبي ثانية ، قلت لها :

- إذا لم يكن هناك أي إزعاج هل تسمحين لي أن أسكن معك ؟

وافقت ، لكن أولادها أخذوا المصاري ثم طردوني . لم يطردوني بشكل مباشر إنما صاروا يسمعونني كلاماً و كرامتي لا تسمح لي الاستمرار بهذا الوضع فرجعت إلى بيت أبي ، و بعدها توظفت بالبلدية ، لكن زوجة أبي عقدتني ، أنا معقد يا دكتور ، لا أدري ماذا تريد زميلتي مني . تنظر نحوي و تضحك . تركت العمل . لم أعد أستطيع العيش .

تأملته من جديد ، ثم سألته :

- ماذا تريد الآن ؟

قال :

- لم أعد أستطيع العيش أريد إبرة شهادة وفاة .

سألته :

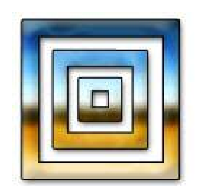
- ما عمرك ؟
- أربعون .
- لم لم تتزوج حتى الآن ؟
- لا أستطيع أن أفتح بيتاً .

كتبت له علبتين من الفيتامينات ، ثم ناولته الوصفة .

نظر إليها سعيداً و سألني :

- هل هذه إبرة شهادة وفاة ؟

أكدت له ذلك فحمل الوصفة و غادر قسم الإسعاف .



عضة كلب

سألته :

- ماذا تريد ؟

أشار إلى أسنان الكلب على الثلث المتوسط للساعد .

سألته :

- هل هو كلب شارد ؟ هل قتلته ؟

احتج على شيء ما، فسألني باستنكار :

– ماذا تقول ؟

حضر مريض آخر ، فأشرت للممرض أن يتولى أمر الرجل المعضوض ، و دخلت مع المريض الجديد إلى غرفة جانبية لأفحصه .

انتهيت من فحص المريض و عدت إلى غرفة الاستقبال . كتبت الوصفة و شرحت للمريض التعليمات الخاصة باستعمال الدواء . و بعد أن انتهيت و جدت المعضوض لا يزال بانتظاري . أشرت له من جديد أن يذهب إلى الممرض الذي فتح سجل المعضوضين ليدون المعلومات الخاصة بكل من المريض و الكلب . و من جديد انشغلت مع مريض جديد . و ثانية وجدت المعضوض واقفاً لم يتحرك .

احتج بغضب ، قال :

- لم تفحصني .

قلت له :

- هذه مسألة روتينية يتولاها الممرض . لكن كان عليك أن تمسك الكلب و تحضره لنقتله و من ثم نقطع رأسه و نرسله إلى مخبر داء الكلب في دمشق لتحليله .

اصفر وجه السيد المعضوض ، و قال :

- دكتور ما هذا الذي تقوله ، تريد أن تقتل الكلب ؟
- نعم هذا إجراء روتيني .

و من جديد انشغلت بمريض جديد و هذه المرة سمعت صوت المعضوض يصرخ بوجه الممرض :

- أنا لا أسمح لك . أنت تهينني .

خرجت لأستطلع الأمر ، قال المعضوض :

- الممرض أهانني .

نفى الممرض ذلك

قال المعضوض :

- أنا أريد طبيباً ليفحصني و يعطيني اللقاح .

قال الممرض :

- لكن هذه مهمتي ، لقد أعطيت اللقاح لآلاف مثلك .

انتفض المعضوض من جديد :

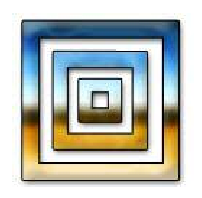
- مثلي ، أبداً ليسوا مثلي هل تعرف من عضني ؟

قال الممرض :

- كلب شارد .

في هذه اللحظة بلغ غضب المعضوض مبلغاً كبيراً :

- ما هذا الذي تقوله ، كلب شارد !! كلامك خطير و يودي بك إلى السجن أنت و معلمك الذي حرضني منذ قليل على قتل الكلب (أشار إلي بكلمة معلم) . أنتم لا تعرفون كلب من عضني ، أنتم جهلة و الله لو سمعكم تتحدثون عن كلبه بهذا الشكل لرماكم في السجن . لقد عضني كلب اللواء .....هذه ليست عضة عادية و لست كالمعضوضين الذين يراجعونكم أنا مساعد سابق في فرع أمن الدولة و ما تحدثتم به خطير خطير . لكني لا أريد أن أؤذيكم . هل كلب المعلم كلب ضال ؟ !! هيا افحصني يا دكتور هيا افحصني



عضة إنسان !

دخل إلى الإسعاف بخفر . تحدث همساً مع الممرض الذي ابتسم بعد أن استمع له ، ثم قال له :

– اسأل الطبيب .

استفهمت منه . فشرح الممرض :

- يريد أن يسألك سؤالاً .

قلت له:

– تفضل .

قال الشاب بتردد :

- هل تحتاج عضة الإنسان إلى لقاح ضد داء الكلب ؟

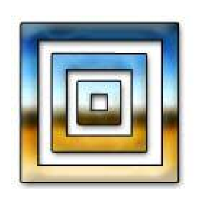
قلت له مازحاً :

- حسب نوع الإنسان العاض .

قال بجدية :

- هو ضابط كبير .

استفسرت منه عن الموضوع ، فقال إنه يملك محلاً لبيع الألبسة النسائية و فجأة توقفت سيارتان أمام باب محله فحجبتا المحل تماماً ، طلبت من السائق إما أن يقدم السيارة أو يؤخرها قليلاً كي لا تحجب المحل ، و لم يكد يكمل كلامه حتى انقض عليه الضابط و المرافق و أشبعوه ضرباً و في النهاية عضه الضابط من يده .



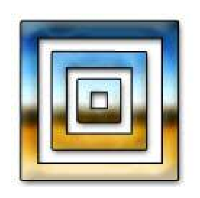
سالم السعيد

حضر مريض أعمى أعرج . سألته عن اسمه فقال :

- اسمي سالم السعيد .

صمت قليلاً ، ثم تنهد و قال :

و الله لست سالما و لست بسعيد . أنا أعمى و أعرج و معدتي تؤلمني و أولادي أولاد حرام و زوجتي لا يعيش معها إلا القرود و أنا منتوف من الفقر . و فوق كل هذا اسمي سالم السعيد ....



ليس بي شـيء !!

دخلت إلى الغرفة فوجدت رجلاً في السبعين من عمره جالساً على سريره ، سألته :

- ما تشكو يا عم ؟

فأشار إلى فتق إربي ، و قال :

- لا أشكو من شـيء لكن هذا الفتق يؤلمني و أريد أن أعمل له عملية .

نظرت إلى الممرضة مستفهماً فلم أجد عندها جواباً . لابد أن خطأ ما قد حدث فبدل أن يرسلوه إلى قسم الجراحة أرسلوه إلى قسم الأمراض الصدرية . هممت أن أغادر الغرفة إلا أن رجلاً في الخمسين من عمره دخل في هذه اللحظة سلم علي و قال إنه ابن الرجل المسن ، ثم انتحى بي جانبا و شرح لي الأمر . و أطلعني على صورة الصدر التي أحضرها معه . كانت توحي بإصابته بسرطان قصبات . عدت إلى المريض و كررت السؤال عليه :

- ماذا تشعر ؟

قال :

- و الله ليس بي شـيء سوى هذا الفتق .

قلت له :

- لا أسألك عن الفتق بل عن صدرك ، هل تسعل ؟

هز رأسه بالإيجاب ، و بدأ يجيب على أسئلتي بشكل مقبول لكن كل حين كان يردد لي لازمته المعهودة ((و الله ليس بي شـيء سوى هذا الفتق)) . و تدريجياً بدأ يروي سيرة حياته نحن من اللواء و أسيادنا ((.......)) و يداي ربيتا على الصمد و أطلعني على يديه المشوهتين بشكل حقيقي إذ أنهما بوضعية نصف عطف دائمة . سألته عن عمره ، قال إنه لا يعرف لكن ما يذكره أنه في اليوم الذي أخذت فيه تركيا اللواء ووضعت حجر الحدود كان عمره ثلاثة عشر عاماً و كان يرعى ببقرتين واحدة اسمها شرابة و الثانية اسمها عنابة .

انتقلت إلى فحصه فوضعت السماعة على صدره لأصغي لأصوات التنفس ، قلت له :

– يا عم قل أربعاً و أربعين .

ردد :

- أربع و أربعون .
- أربع و أربعون كمان .

قال :

- أربع و أربعون كمان .

قلت له :

- يا عم أربع و أربعون بس .

قال :

- أربع و أربعون بس .

عندها لم أتمالك نفسي أنا و الممرضة فغرقنا بالضحك . أما هو فعاد يكرر لازمته ليس بي شيء لكن هذا الفتق يؤلمني .



فقرة من يومياتي (1/27)

أمطرت بغزارة هذه الليلة لذلك توقف توافد المرضى . نظرت من النافذة إلى الأنوار المنعكسة على إسفلت الطريق فهاجمتني رغبة ملحة بشرب الشاي ، صعدت إلى جناح الأطباء . و هناك وجدت طارق يعد الشاي . قلت له القلوب عند بعضها ، طلب مني أن أحضر كوباً فتحت خزانتي و أخرجت الكوب و جلسنا قبالة بعضنا نشرب الشاي .قال :

- عدد المرضى قليل هذا اليوم .

قلت :

- هي فرصة كي نلتقط أنفاسنا . تعلم أني أعشق المطر خاصة عندما يغسل إسفلت الطرقات و تنعكس الأضواء الكابية عليها .

صفق بيده و قال :

- و الله أنت تقول شعراً .

سألته عن بلغاريا ، قال :

- إن فارنا تكون غارقة في الثلج هذه الأيام ، كم كان الثلج رائعاً !! لكني سمعت من القادمين حديثا أن الشتاء تحول إلى عبء ثقيل بعد انهيار النظام الاشتراكي إذ انهار نظام التدفئة المركزية الذي كان يمد كل البيوت بالطاقة و بالماء الساخن .

لاحظت على الطاولة أمامه كرت بوستال قبل أن أسأله عنه بدأ يحدثني ، قال :

- البارحة كان عيد شفيعها ، ذهبت إلى السوق و اشتريت أكبر كرت بوستال وجدته و بعد أن جهزته اكتشفت أمراً خطيراً و هو أني لم أعد أعرف عنوانها ، هل يعقل أننا افترقنا إلى هذه الدرجة ؟ و أنا الآن أفكر أن أرسله إلى الجامعة لتستلمه من هناك .

سألته سؤالاً ذا مغزى :

- منذ متى تركت بلغاريا ؟

فهم إلى ما أرمي من سؤالي . شرح لي أنه هنا منذ سنتين لكنه يشعر بغربة شديدة ، ربما يعود السبب إلى أني ذهبت للدراسة في بلغاريا صغير السن فكل خبراتي الحياتية تنتمي إلى هناك . و عندما عدت ، تحت إلحاح أمي ،لم أستطيع التأقلم مع الوضع هنا . أخجل أن أقول هذا أمام الناس لأن هذا البلد في النهاية هو بلدي و من المعيب أن أشعر

هذا الشعور ، لكن هذا ما أحس به . الحياة هنا معقدة فخلال سنتين لم أستطع إقامة علاقة مع فتاة هنا و السبب أن كل خطواتك هنا مراقبة و كل تصرف محسوب عليك . أنت لا تستطيع أن تتصرف بعفوية و الحب يحتاج إلى قدر من العفوية و الحرية و إلى وقت و قليل من العتمة لينمو و هذا غير متوافر هنا . هنا الفرد ليس فرداً بل هو جزء من مجموع لا يترك له أية حرية للتصرف ، الحب لا ينمو في هذه الأجواء بل إن ما ينمو هو الفاشية .

البارحة حلمت أن روحي قد خرجت من جسدي و ها أنا أراها معلقة على الحائط ، نظرت إليها فإذ بها سوداء ، قلت :

- هل من المعقول أن تكون روحي بهذا السواد ؟

خطوت لأستردها فإذ بي أقع في هاوية عميقة و قبل أن أصل إلى القاع استيقظت من نومي ، احتجت لبعض الوقت لأدرك من أنا و أين أكون . و كما كان يحصل معي و أنا طفل صغير ، إذ كثيراً ما استيقظت لأسأل أمي من أنا ؟ فتقول أنت طارق . أسألها ابن من ؟ فتقول ابن محمد الحلواني عندها أطمئن و أتابع نومي . هذه المرة لم أسأل أمي بل تناولت بطاقتي الشخصية و قرأت اسمي بصوت عال طارق بن محمد الحلواني .

جفاني النوم تلك الليلة و بدأت أسترجع تاريخ حياتي و أنا أسأل نفسي سؤالاً واحداً أين أخطأت و أين أصبت . هل كان دخولي كلية الطب خطأ ارتكبته ؟ هل كانت عودتي إلى بلدي خطأ ؟ هل أخطأت لأني لم أتزوجها ؟ لا أدري . هي أيضاً كان عندها مشاكل فعندما علمت أمها بعلاقتها شاب تركي ، اليونانيون يعتقدون أن كل المسلمين أتراكاً ، جن جنونها و حضرت من فورها إلى بلغاريا لتمنعها من هذا الزواج .

استيقظ في هذه اللحظة الدكتور ماهر الذي يختص في قسم الأطفال لكنه ينام في غرفتنا و هو من المقيمين في المشفى بشكل دائم . كان شخصية غامضة ما نعرفه أنه لا يملك بيتاً بعد أن توفي أبوه و أمه و تقاسم أخوته الإرث . و أحواله المادية في الحضيض رغم أنه يحمل الجنسية الإسبانية و قد جاوز الأربعين عمراً . و يبدو أنه كان يستمع لحديثنا . قال بصوته الضعيف كبنيته الجسدية :

- يا حكيم المشكلة ليست فينا فنحن من خيرة شباب الكون تعليماً و تحضراً و إنسانية لكن المشكلة في الظروف التي تحيط بنا . هل من المعقول أن يعيش طبيب بعد دراسة عشرين عاماً في هذا الجناح البائس و يتناول الطعام من يد أبي خالد و يقبض أربعة آلاف ليرة في الشهر ، أي مائة دولار . هل هذه حياة ؟

هنا وجدت الفرصة لأسأله السؤال الذي طالما تشوقت لأعرف جوابه منه :

- أنت تحمل الجنسية الإسبانية و لا يكلفك السفر سوى أن تشتري تذكرة الطائرة . لم لا تغادر ؟ لاسيما أن لا شيء يربطك بهذه البلاد فلا زوجة لديك ، و لا أهل ؟

أجاب :

- بعدما عشت في هذا البلد تعلمت الخوف صرت أخاف من كل شيء . أخاف من السفر . أخاف من ركوب الطائرة . أخاف من تغيير مكان إقامتي . لقد علمتني هذه البلاد الخوف . كل صباح أفكر بالسفر . أفكر أن أستدين ثمن تذكرة الطائرة و أذهب لأني حتى لو لم أجد عملا هناك سآخذ إعانة بطالة أكثر من ضعفي راتبي هنا . لكني أحجم في آخر لحظة ماذا أفعل بهذا الخوف الذي صار قابعاً في أعماقي ؟ لم أكتسب من بلدي سوى الخوف .

ذهب صديقنا إلى قسم الأطفال ليفحص مرضاه و عدنا نتبادل الحديث . قلت لطارق :

- أنت ما زلت تتصرف كالسواح الأجانب . فأراك تصاب بالدهشة لأمور أقل من عادية .

البارحة روى لي كيف أن أحد مرافقي المرضى عرض عليه مائتي ليرة بعد أن لاحظ اهتمامي بوالده استغربت ذلك و شرحت له أن الطبابة مجانية في هذا المشفى ، فقال لي هذه من أجل اهتمامك بوالدي . شرحت له أني أتقاضى راتباً من الدولة مقابل أن أهتم بالمرضى . برم شفتيه و صمت لكن بدا أن هناك شيئاً لم يفهمه . ذكرت ذلك أمام إحدى الممرضات فضحكت ، وقالت لي :

- هنا الطبابة مجانية بالاسم . جميع الأطباء يقبضون ، لا بل إنهم يساومون المريض على السعر ، هل شاهدت المريضة المسنة التي دخلت البارحة لإصابتها بقصة ألم بطني و تم الاشتباه بانثقاب قرحة أو أمعاء ، أي أن حالتها تتطلب جراحة إسعافية ، لقد بقيت تتلوى ألما من الثانية عشر ظهرا و حتى العاشرة مساءً و كل جراح يتركها للذي سيأتي بعده بحجة المراقبة ، و ليس هناك من يتجرأ أن يعطيها مسكن ألم كي لا تضيع الأعراض حتى همس شخص بأذن أحد أولادها أن العملية لن تجرى إن لم تدفعوا و بالفعل دفعوا للجراح خمسمائة ليرة فأدخلها إلى غرفة العمليات و هناك تبين أن المشكلة بسيطة لا تعدو عن كونها إنفتال كيسة مبيض .

ذكرت لي هذه الممرضة أسعار العمليات ، مثلاً ، الفتق الإربي بألف ليرة يدخله الجراح المناوب إلى قسم الإسعاف و يكتب فتق إربي مختنق ، و هذا أمر يحتاج على عمل جراحي إسعافي ، فيدخله إلى غرفة العمليات بشكل فوري . و بالطبع يكون الفتق غير مختنق و لا يحق للجراح إدخاله إلى العمليات بشكل فوري .

ما يثير استغرابي أن الجراح الذي قبض الخمسمائة ليرة ليس بحاجة للنقود لأن ثمن سيارته مليون ليرة و لا ينقصه أي شيء في الوجود فهو متزوج من صيدلانية دخلها المادي جيد جداً و يمتلك عيادة و بيتاً ومزرعة ، لا أدري ما الذي يدعوه لهذا.........!!

جميع الناس يعلمون بما يجري لكن هناك إصرار على أن تبقى الطبابة مجانية ، رغم أن الجميع يدفعون بشكل غير شرعي و هذا يشكل إفساداً للذمم . هذه البلاد تنقصها

الجرأة على مجابهة نفسها . كل شيء فيها يتم بالشعارات و لا يهمها إلا المظاهر . في العام الماضي حضر وزير الصحة لمناقشة تطوير العمل في المشفى استمع إلى كل المطالب ، ثم قال لهم يجب أن نكسي واجهة المشفى بالحجر . و صرف فورا المبالغ المخصصة لذلك في حين أن أسراب الصراصير تسرح و تمرح داخل المشفى و لا تتوفر أبسط الأدوية الإسعافية .
و ها هو مدير المشفى يريد أن يمنع زيارات ذوي المرضى إلا في الأوقات المخصصة لذلك . في بلغاريا كانت الطبابة مجانية بشكل حقيقي ، فعندما يدخل المريض إلى المشفى يخلع ثيابه و تسلمه إدارة المشفى لباسا خاصاً و هي تتكفل بطعامه و شرابه و علاجه و غسيله ، أي أنه لا يحتاج إلى أي شيء من الخارج ، لذلك فقد كان القانون صارماً .
إن الوقت المخصص للزيارات مدته ساعتين كل يوم و لا يجرؤ أي إنسان على خرقه و لو لدقيقة واحدة . أما عندنا فعلى المريض أن يحضر كل شيء من الأدوية إلى الطعام لأن طعام المشفى رديء إلى درجة غير مقبولة ، لذا فإن وجود المرافقين مع المريض ضرورة موضوعية . فكم من مرة اضطررنا أن نرسل المرافق على وجه السرعة ليشتري من خارج المشفى إبرة إسعافية ، أو مسكناً للألم .
هذه بلاد لا تجرؤ على مجابهة مشاكلها بالشكل المطلوب بل هي ترقع و تلف و تناور و تدور و هذا ينعكس على نفسية البشر فأغلبهم بلا ملامح خاصة به ، هم مثلا يعملون و عاطلون عن العمل في نفس الوقت . الجميع يكذب هنا . و لا علاقات إنسانية حقيقية مثلاً علاقة الرجل بالمرأة هنا مليئة بالكذب و لم ألاحظ أن هناك حباً حقيقياً .بالمقارنة مع بلغاريا فالفتاة هناك لا تراوغ مشاعرها فإذا أعجبتها تمضي معك حتى النهاية و إذا كرهتك تركتك مباشرة ، أما هنا فالفتاة تفكر بك كزوج فتتصنع الفضيلة و تضرب أخماساً بأسداس فإذا صح الحساب معها لاطفتك و إلا فلن تبتسم في وجهك أبداً .
ضحكت و قلت له :
- أنت تهاجم قيمنا العائلية .
فأكد لي أنه يفعل ذلك . رن جرس الهاتف في هذه اللحظة . فخمنت أن كهرب قد حضرت كعادتها كل يوم مطير و هم يطلبوني من أجلها . و بالفعل كان الأمر على هذا النحو لكنني لم أشأ أن أقطع الجلسة مع طارق فطلبت من ممرضات القسم أن يعطوا السيدة كهرب السرير الذي ترغب به و سأراها لا حقاً
ما إن تمطر حتى تحضر لتقيم في المشفى . و لأني أعرفها جيداً لم أسألها أي سؤال و لم أترك لها الفرصة لتتوسل و تذرف بعض الدموع كي أسمح لها بالدخول إلى المشفى و قبلتها على الفور في قسم الأمراض الصدرية ، قسمها المفضل . و في الحقيقة إنها مصابة بأمراض تؤهلها لتختار القسم الذي تريد أن تنام به فهي مصابة بقصور قلب

و مريضة بالداء السكري و عندها ربو و آلام مفصلية ، لكن ليست أمراضها هي التي تدفعها للمجيء إلى هنا بل هو سبب آخر لا علاقة له بالمرض إنه الوحدة .

قال طارق :

- أليس هذا أمر غريب في مجتمع يفتخر صباحاً و مساءاً بأنه يقدس قيم العائلة و الجماعة ؟!

قلت :

- إننا ننحل ، فهي تعيش لوحدها بعد أن تزوج أولادها ، و أكثر ما تهاجمها نوبات الوحدة في الشتاء ، و ربما هي تخاف من الموت فتحضر لتقضي الشتاء في المشفى . هذا حالها منذ عشر سنوات . وكل من في المشفى يعرفها و يسهل لها أمورها و بالأحرى ليس هناك من لديه الوقت ليضيعه بمجادلتها لأنها في النهاية ستحصل على ما تريد . إن لم يقبلها رئيس قسم القلبية تذهب إلى السكري ، أو إلى قسم الروماتيزم ، أو الصدرية . في النهاية ستجد مكاناً لها في المشفى .

ذات مرة تحدثت معها مطولاً بعد أن رسلوا ورائي إلى قسم الصدرية لأحل مشكلة نشبت بينها و بين إحدى المريضات . فقد اعتادت أن تنام في أحد الأسرة ، لكنها وجدته مشغولاً من قبل مريضة أخرى فأرادت طردها من السرير . رفضت المريضة ذلك فاشتبكت كهرب معها ، و عندما تدخلت إحدى الممرضات لتنصف تلك المريضة أنبتها كهرب بأن قالت لها :

- أنا أقدم منك في هذا المشفى .

يومها طلبت من الممرضة أن تخلي المريضة إلى سرير آخر و تركت لكهرب سريرها المفضل . روت لي نتفاً من حياتها . أذكر قولها أنها ولدت يوم أنارت فرنسا الدنيا بالكهرباء و شقت الطرقات لذلك سماها أبوها كهرب و أنها أنجبت سبع ذكور لكنهم لا يزورونها بتاتاً و أن الوحيد الذي يزورها هو جارها في الطابق الأرضي .

علقت ملمحاً لأفكاره :

- هذه هي نتيجة غياب التضامن السري التضامن الأسري ، الذي تشكو منه و تعتبره سبباً لعدم تطور الفرد .

شرح أنه لا يقصد غياب العلاقات الإنسانية بين البشر . إنما ينتقد تلك البنية الأسرية المغلقة بشدة و ليشرح لي فكرته بدأ يتحدث عن المريضة التي توفيت البارحة . قال :

– البارحة توفيت شابة لا يتجاوز عمرها الثالثة و العشرين ، بسبب تناولها جرعة زائدة من الفينوباربتال ، الذي كانت تتناوله لعلاج داء الصرع ، و لا أدري هل حدث ذلك بسبب خطأ ما أم عن سابق تصميم بهدف الانتحار ، لأنها لم تصحو من السبات الذي دخلته لنسألها و إن كنت أرجح أنها فعلت ذلك بهدف الانتحار .

أحضرها أهلها بعد ستة عشر ساعة من دخولها بالسبات إذ حسبوها في البدء نائمة ، و عند دخولها إلى المشفى لم نستطع أن نفعل الكثير من أجلها إذ أن الدواء قد تثبت بجسدها ، و لم تفلح محاولات إنقاذها فتوفيت بعد يومين من دخولها إلى المشفى .

إن الناس في بلدنا أقل تأقلماً مع عاهاتهم ربما بسبب المجتمع . فقديماً كان الإسبارطيون يقتلون أطفالهم الضعفاء و نحن نفعل ذلك بطريقة أخطر إذ نقتل ذوي العاهات روحياً بأن نلفظهم من حياتنا المجتمعية و بأن ننظر لهم كأنهم من جنس آخر لا علاقة له بجنسنا البشري ، فهذه الفتاة و بسبب إصابتها بالصرع ممنوع عليها أن تتزوج و بالتالي لن يكون لها أسرة أو أولاد لذنب لم تقترفه هي .

و تذّكر قصة ذلك الشاب ، الذي يعتقد أنه ضعيف و معاق بسبب إصابته برجفة في يديه لا تؤثر على عمله ، حيث أنه عامل بناء و الدقة الشديدة غير مطلوبة في عمله كما عند مصلح الساعات أو صائغ الذهب ، لكنه قال إن جميع أفراد الأسرة حوله يصفونه بالمريض و إن والدته تذهب به إلى الأطباء دوماً لهذا السبب .

يومها شرحت له أن ما يعاني منه ليس مرضاً و أن المشكلة هي عند أسرته التي تنظر إليه كمريض ، لكنه أكد لي أنه يشعر بنفسه ضعيفا و عندما طلبت منه تفسيراً شرح بأنه لا يستطيع حمل كيس الإسمنت الذي يبلغ وزنه خمسين كيلو غراما سوى لثلاثة طوابق ثم يجلس بعدها ليستريح . كتمت ضحكتي و عدت لأرفع له معنوياته . و أنا أفكر ، يريد أن يكون شمشوماً أو هرقلاً

قال طارق :

- الأسرة هي سبب كل كوارثنا . يقولون أن الطير إذا كبر بنى عشاً خاصاً به ، أما نحن فنبقى مشدودين إلى عش لم نبنه و لا تعجبنا تفاصيله . الأسرة هي كارثة الكوارث و هي التي تجعلنا أشخاصاً عاطفيين لا نصلح لشيء . يدهشني أن هناك أشخاص يفخرون بالأسرة و يعيرون أوربا التي فقدت هذا البناء . أما أنا فمن خلال تجربتي الشخصية أقول لك أن الكارثة هي الأسرة . فلولا أمي لكنت الآن في فارنا أتزلج على الثلج و أعمل ست ساعات في اليوم و لتزوجت من نتالي . لكن بكاء أمي ، التي بقيت وحيدة بعد وفاة والدي . بكاءها على الهاتف و معارضتها لزواجي من أجنبية ، لأنها ستفقدني للأبد كما تعتقد . كل ذلك منعني من الارتباط بنتالي و أجبرني على العودة من بلغاريا فوقعت بهذا الفخ الذي لم أعد أستطيع الفكاك منه .

قلت له :

- كلامك صحيح ، لكن للأسرة جانب آخر إنها وسيلة مقاومة اخترعها المجتمع نتيجة الظروف الصعبة التي يمر بها ، صحيح أن الحياة الأسرية تميل للرتابة و تعارض التجديد بسبب ارتباط التجديد برغبة أكثر من طرف و هذا ما يجعله صعباً

، لكنها في الوقت عينه وسيلة من وسائل حماية الفرد الذي من الممكن أن تطحنه هذه الظروف إذا ترك وحيداً . كما أنها تخفف ألم الفرد عبر تخفيف مستوى إحساسه بالواقع نتيجة العزلة الوهمية عن العالم الخارجي التي تخلقها الأسرة . أي أن الأسرة تضمن استمرار حياتك بيولوجياً مقابل أن تأخذ شيئاً من روحك ، هذه هي المعادلة . كثير من الحيوانات و النباتات يتباطأ استقلاب خلاياها في حالات البرد القارص . هي تحمي نفسها و تنتظر حلول الربيع لتجدد نفسها من جديد .

- و متى يحل الربيع عندنا ؟

هززت رأسي ، وأجبته :

- لا أدري .



شريك جديد

قبل عدة أيام انضم إلى غرفتنا ، غرفة أطباء الأمراض الداخلية ، رفيق جديد يكبرنا بعشر سنوات على الأقل . يبدو على تعابير وجهه المشدودة توتر و ترقب دائم و كانه في حالة استعداد دائمة إما للهجوم او لصد الهجوم مما يخلف في النفس انطباعاً غير مريح على الإطلاق . عرفنا على نفسه أنه الدكتور أحمد . سألت نفسي ماذا كان يفعل كل هذا الوقت ؟ لا بد أن عمره قد جاوز الأربعين و هممت أن أقول لطارق المثل المصري ((بعدما شاب ودوه الكتاب)) .

كان متحفظا في البداية فقد جلس يستمع لأحاديثنا على عادة الأشخاص الذين يدخلون مجتمعاً جديداً لا يعرفون تفاصيله بعد . لكنه لم يتأخر عن الاندماج و صار يشارك في النقاش و بسرعة أدركت أنه شيوعي من النمط الستاليني

قال لي طارق :

- يبدو انك نسيت أبا خالد فلم تعد تذكره .
- أبداً ، و هل ينسى من هو مثل أبي خالد .
- ما هي آخر قصصه ؟

قلت له :

- أجدك بت مهتماً بفكر أبي خالد .
- للتسلية .
- اسمع إذاً آخر قصصه .

تقدم شاب لخطبة فتاة فوافق الأب شرط أن يعمل الخطيب راعياً لأغنامه مدة عام كامل و بعدها يزوجه ابنته فإن لم يستطع الشاب أن يتدخل بها أعادها إلى أبيها .
وافق الشاب على شرط والد خطيبته و صار يرعى أغنام عمه . فكل صباح قبل أن يخرج إلى المرعى يزوده والد الفتاة بزوادته ، جبن و لبن . قضى الشاب عاماً كاملاً لا يأكل سوى اللبن و الجبن و عند نهاية العام تزوج الفتاة . لكنه لم يستطع الدخول بها أول يوم . فاستمهلها ليوم آخر فأمهلته و هكذا حتى اليوم الرابع فأخبرت والدها الذي فسخ عقد الزواج تنفيذاً لشرطه السابق .

ارتحل الشاب في الأرض يطلب تفسيراً لما جرى معه . فالتقى بشيخ فسر له كل شيء . لقد اكتشف أن سبب فشله يعود إلى اللبن و الجبن اللذين أكلهما على مدار عام كامل

. عاد الشاب إلى والد الفتاة و طلب ابنته من جديد فوافق الوالد بنفس الشروط السابقة ، لكن الشاب هذه المرة لم يقرب زوادة اللبن و الجبن بل كان يرميها و يأكل كل يوم فحل بصل بدلاً عنها ، و عند نهاية العام تزوج الفتاة من جديد و دخل بها منذ اليوم الأول . و هنا عرف والد الفتاة أن الشاب قد اكتشف الخديعة .

ضحك طارق أما أحمد الذي كان يستمع للقصة فقد نظر إلينا شزراً و غادر الغرفة .

قال طارق :

- قصتك لم تعجب زميلنا .

قلت له :

- ربما كان يأكل اللبن و الجبن كل يوم .

و غرقنا بالضحك من جديد .

في اليوم التالي كنا نتناول طعام الفطور و نتبادل الحديث أنا و طارق عندما مر أبو خالد فقلت له :

– انظر الدكتور طارق يأكل اللبن و الجبن .

ضحك أبو خالد ، و قال :

- و أنت تأكل البصل .

قال طارق :

- أنا أعمل بنصيحة أبي خالد لذلك آكل اللبن و الجبن .

قلت :

- و أنا أيضاً أعمل بنصيحته لذلك آكل البصل .

تابع أبو خالد عمله ، قال طارق :

- البارحة ذهبت مع أمي لأرى العروس التي تريد خطبتها لي .
- هذا خبر جديد الدكتور العظيم خريج بلغاريا و صاحب العلاقات النسائية العابرة للحدود يتزوج بطريقة الأجداد .

قال :

- و ماذا سأفعل ؟ لقد كسرت أمي ظهري لأن من سأتزوجها يجب أن تكون على وفاق تام معها ، حيث ستعيشان سوية ، كما أني عاجز عن بناء علاقة في هذه البلد كما سبق و شرحت لك ، الأمر هنا يحتاج إلى تكتيك و كر و فر و لشباك صيد حتى تقع الفتاة كأنها الأمر عملية صيد أو معركة حربية .

قلت :

- و هذا ما يجعل للجنس طابعه المثير في مجتمعنا .

قال :

- أنا لم أعد أبحث عن الإثارة . أنا أبحث عن الهدوء .

- أنت كهل . أكمل ماذا جرى مع الخطيبة .
- جلست و أنا خجل من الموقف فالفتاة في السابعة عشر من عمرها في صف البكالوريا . لم أجد ما أكلمها به فسألتها عن دراستها ، فأجابتني إن الدراسة ليست من ضمن اهتماماتها ، فتفر قلبي منها و بقيت طوال السهرة صامتاً رغم نظرات أمي المؤنبة . أما الفتاة فلم تصمت أبداً بل كانت تتحدث عن الفساتين و الأزياء .

قلت :

- هذا يعني أن المحاولة فشلت .
- نعم و بامتياز.

دخل الدكتور أحمد في هذه اللحظة فبدأت أنفذ خطتي ، سألت طارق بصوت عال عن قصة المسلمين البلغار و حكاية تغيير الأسماء . خلاصة هذه القصة أن الحكومة البلغارية أواخر الثمانينات أجبرت مواطنيها المسلمين على تغيير أسماءهم المسلمة بحجة أنها أسماء تركية و من لم يقبل فتحت له الحدود مع تركيا ليهاجر إليها . يومها اعتبر الشيوعيون العرب الحملة على بلغاريا بسبب هذه القضية مؤامرة إمبريالية ووقعوا بياناً يتضامن مع الحكومة البلغارية وينكر الواقعة . أكد طارق ما حدث ، و قال :

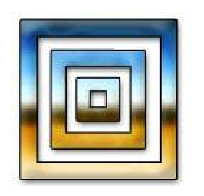
- لقد أجبروهم على تغيير أسمائهم حتى الجد الثالث ، لقد تغيرت الأسماء حتى على شاهدات القبور .

لم يعد الدكتور أحمد قادراً على ضبط أعصابه ، فتدخل في الحديث ، قال :

- أبداً هذا لم يحدث أبداً هذه دعاية إمبريالية ....

انسحبت في هذه اللحظة و تركته يحاضر بطارق . نظر إلي طارق بلوم ، كأنه يقول لي لقد فعلتها بي . كان حياؤه يمنعه من مقاطعة الدكتور أحمد سيضطر للاستماع إلى النهاية .

عدت بعد نصف ساعة لأجد الدكتور أحمد قد انتهى من حديثه . و قد لاحظت فوراً حجم المعاناة على وجه طارق .



المــوت

حررت شهادة الوفاة للرجل . و كتبت عند بند سبب الوفاة عبارة ((توقف قلب و تنفس)) ....

في هذا المشفى تعاملت مع الموت عن قرب لأول مرة في حياتي . الموت عمل صعب يؤديه المرء ، هذا أول ما فكرت به و أنا أشاهد بشراً يموتون ، اعتادت المسلسلات المصرية أن تصور الموت على الشكل التالي :

((رجل يجلس على سرير المرض وحوله أولاده و بينما هم يتحدثون ، و قبل أن يبوح لهم بالسر الرهيب يلوي عنقه و يموت و يبقى السر سراً ، يحاول الأولاد هزه ، لكنهم يكتشفون أنه قد مات . فيبدءون بحثهم عن السر من جديد عند شخص آخر))

ليت الموت يكون بهذه السهولة . قال تعالى :

((سلام علي يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حياً))

كل الناس يعرفون شيئاً عن عذاب الولادة ، لكن لا أحد يفكر بعذاب الموت . خروج الإنسان من بطن أمه إلى الحياة أمر شاق يعاني منه الإنسان و تعاني منه الأم و أول ما يفعله المولود هو أن يصرخ دليلاً عما عاناه للخروج . و إن الخروج من الحياة إلى الموت ، أيضاً ، بنفس صعوبة الولادة إن لم يكن أكثر ، و هنا نجد معنى الآية القرآنية الحقيقي . يتشبث الجسد بالحياة و يخترع أساليب كثيرة لمقاومة الموت . الذي لا يحدث إلا بعد انهيار كل خطوط الدفاع التي رتبها الجسم خطاً وراء آخر للدفاع عن حياته . لقد شُغفت بموضوع الموت و أعدت قراءة مقالة فرويد عن الموت و أعترف أنها أصابتني بالرعب . لا أستطيع أن أسلم أن الخلايا تسعى نحو الموت ، و أن الأصل هو السكون و الموت ، كما يقول فرويد ، و أن الحياة حالة عرضة و لا عمل للخلايا سوى محاولة العودة إلى حالة السكون الأصلية ؟؟

لم أسلم بما قاله فرويد و خاصة بعد ما شاهدته من تشبث الجسد بالحياة ، ثم ما الذي يدري فرويد أن ما بعد الحياة هو الموت . إن هذا ما يبدو لنا نحن الأحياء لأننا نقيس (الما قبل) و (الما بعد) بمقاييس الحياة نفسها ، و بهذا نرتكب خطأً فادحاً كمن يطبق قوانين فيزياء نيوتن ، التي لا تصح إلا في نطاق الجاذبية الأرضية ، كمن يطبقها خارج مجال الجاذبية الأرضية . أنا أشعر أن البداية و النهاية متصلتان و أن البداية هي نهاية و

النهاية هي بداية ، أفعى تلتف حول نفسها لتعض ذيلها . إن بداية ،كالولادة ، ربما كانت نهاية لحياة أخرى بطريقة أخرى لا نعلم عنها شيئاً ، و كذلك الموت ربما كان بداية لطريقة أخرى من الوجود ربما لا لزوم للجسد فيها . الحياة صفحة مستلة من كتاب ضخم يتشابه في هذه الصفحة السطر الأول مع السطر الأخير ، أتخيلها على الشكل التالي :

((............. و ولد فلان)) .

أما النهاية :

((مات فلان ، و...............))

أما ما الذي قبل هذه النقط و ما بعدها فهذا ما لا نعلم عنه شيئاً .

لقد رقد ذلك العجوز السبعيني أسبوعاً كاملاً مسبوتاً في قسم الإسعاف بسبب إصابته بنزف دماغي قبل أن يموت . و إن أشد ما أدهشني أن المنعكسات الطفلية ، و هي حركات تختفي عند الإنسان مع بلوغه الشهر التاسع من العمر كحد أقصى و أشهرها هو منعكس القبض فعندما تقدم للوليد إصبعك فإنه يقبض عليها . هذه المنعكسات عادت للظهور عند هذا الشيخ المسبوت .

ألم أقل إن النهاية و البداية متشابهتان و أنهما مصطلحان مجازيان لا أكثر !!

هناك منعكس طفلي آخر يلفت نظري فإذا ألقيت الطفل على الفراش فهو يفرد يديه و يضمهما كحركة الطير إذا ألقي في الهواء و هذا ما يزيد الحياة تعقيداً فنحن أقرباء لكل الكائنات الحية على وجه الأرض . عندما يولد الطفل فهو كالنبات يتجه نحو مصدر النور و عندما يكبر قليلاً يشبه الطير . جذب انتباهي أثناء دراستنا مادة الجنين في الجامعة صور تطور الجنين خلال أشهر الحمل . في البداية تشبه المضغة و حيد خلية مثل البرامسيوم ، ثم شرغوف الضفدع ، ثم الثدييات ، و هكذا يمر الجنين خلال الحمل بكل مراحل تطور الحياة على الأرض . ففي كل مرحلة يشبه مخلوقاً من مخلوقات الأرض . من خلية وحيدة إلى كائنات تعيش في الماء ، ثم برمائيات ، ثم ثدييات برية .

و لم لا ؟ فعناصر الحياة هي نفسها . إن الخلية الموجودة في دماغ إينشتاين تتكون من نفس عناصر خلية البرامسيوم ، لكن الاختلاف هو في الترتيب و النسب . هناك ظاهرة شبيهة في اللغة العربية فمجموعة من الحروف تعطي كلمات ذات معان متقاربة بتبديل أماكن الحروف ، مثلاً كلمة نبي بدّل ترتيب حروفها يكون لديك كلمة (يبني) أبدل الحروف من جديد تحصل على كلمة جديدة (نبأ) و المعاني الثلاثة متقاربة . ترجم لي طارق شعراً لشاعرة بلغارية تقول به :

((كلما انقرض كائن حي على سطح الأرض خسرنا جزءاً من إنسانيتنا))

هذه هي الفكرة بالضبط ، نحن و كل الكائنات نتكون من نفس المواد ، لكنها مرتبة في الطير ليطير ، و في الزواحف لتزحف ....

قال لي طارق :

- **لو أتيح لي أن أحلل إلى عناصري الأولية ، ثم أعدت ترتيبها من جديد لفعلت بما يضمن لي أن أكون طائرا**
- **ربما الموت يمنحنا فرصة إعادة ترتيب عناصرنا كما نريد ....**

قال طارق :

- **لننتهي من حديث الموت**
- **تكلم أنا أسمعك .**

قال إنه لم يتلق أي جواب على الكارت بوستال الذي أرسله إلى نتالي .

قلت له :

- **يبدو أنها نسيتك .**

قال إنه سيرسل لها رسالة أخرى .

تذكرت أبيات لريلكه :

– من هو وحيد الآن

طويلاً هكذا سيبقى

يقرأ في الممرات قصائد شعر

و يرسل رسائل لا تنتهي .

قال :

- **أعرف هذا لكني لا أملك إلا أن أرسل لها رسالة جديدة .**

قلت له :

- **يجب أن تكون واقعياً و تسلم بأن فتاة يونانية تعيش في بلغاريا لا يمكن لها أن تعيش راهبة على ذكرى حب مضى .**

قال :

- **أعرف ذلك . لكن ما الذي سأجنيه في حالتي الراهنة إن آمنت به . أليس من الأفضل أن أعيش على الوهم ؟**

قلت له :

- **أنت السبب في وضعك الراهن . لماذا تبحث عن أشياء معقدة كإثارة الروح و الحب ؟ أنشأ علاقة جسدية مع أية فتاة و عندها يهدأ جسدك و تستطيع التأقلم مع الواقع بسهولة أكبر .**

قال :

- **أنت تعطي النصائح ذات اليمين و ذات الشمال و تنسى نفسك .**

قلت :

- أنا مسألتي مختلفة . لقد أفسدتني قراءاتي الأدبية فلم أعد أميز بين الحلم و الواقع . على أية حال أنا أعتبر أن الحديث الذي أوجهه لك هو من باب النجوى الداخلية ، أي أني أقوله لذاتي عبرك .
- هكذا توضحت الأمور .

انتقلنا بالحديث إلى مجال آخر . قال طارق لقد تبين أن المريضة سلوى مصابة بورم دماغي .

قلت له إني علمت و علقت أن موقف رئيس القسم بات شديد الإحراج فهو الذي أصر على وضع مميع الدم ضمن علاجها بعد أن خمن أن سبب مشكلتها الدماغية هي خثرة انطلقت من قلبها المريض و أنّب الطبيب المعالج على أنه لم يفعل ذلك ، بل اتهمه علناً بالتقصير و هاهي نتيجة التصوير جاءت ضده . لقد أساء لوضع المريضة الصحي بمميع الدم الذي أضافه لعلاجها .لابد أن الذين يكرهونه من الأخصائيين ، و هم كثر ، سيجدونها فرصة للانقضاض عليه . و بالفعل فقد حدث ذلك إذ أنهم ذهبوا إلى مدير المشفى و إلى مدير الصحة و أطلعوهما على ما جرى ، و طالبوا بعزله من رئاسة القسم .

كانت البدائل المطروحة لرئاسة القسم سيئة جداً بالنسبة للأطباء المقيمين سواء من الناحية العلمية أم من الناحية التنظيمية . فاتفقنا نحن الطرف الآخر على أن نقوم بهجوم مضاد لمساندة رئيس القسم و بالفعل شكلنا وفداً و قابلنا مدير الصحة و مدير المشفى و بالنهاية بقي رئيس القسم في منصبه ، لكن شيئا في داخله انكسر إذ اضطر للاعتذار علناً من أساء لهم بسبب قصة المريضة ، كما بات يشعر أنه مدين لنا لذلك فقد صار مضطراً ليأخذ برأينا ، و لم يعد يكثر من زياراته المسائية للمشفى.



الستاليبتي يفقد عقله

كانت هذه هي المرة الأولى و ربما الأخيرة في حياتي ، التي أرى فيها بأم عيني يفقد عقله . صحيح أن كل واحد منّا قد رأى ما لا يحصى من المجانين . لكن نادراً ما تجد شخصاً شاهد هذه اللحظة ، اللحظة التي يمر بها الشخص على البرزخ الفاصل بين العقل و الجنون . أنا شاهدت أحمد و هو يمشي على هذا البرزخ .

حدث ذلك في قسم الإسعاف عندما كنت أفحص أحد المرضى فاستدعوه ليفحص مريضاً آخر . كان المريض مصابا بقصور في القلب و حالته تحت المتوسطة و قد حضر إلى المشفى مع زوجته . اقترب منه أحمد و بدأ يسأله الأسئلة المعتادة عن حالته المرضية بطريقته المعتادة التي تشبه التحقيق في أحد أقبية الإستخبارات حتى خيل لي أنه سيصفع المريض ليعترف له بكل شيء . انتهى من الاستجواب و انتقل إلى فحص المريض و عندما هم أن يصغي القلب بالسماعة منعته زوجة المريض . قالت :

- لا أريد أن تفحصه بالسماعة .

سألها أحمد :

- لم ؟

قالت المرأة :

- سيموت إن فحصته بالسماعة ؟

جذبني ما يجري فجلست على الكرسي أتابعه .

- سيموت . كيف ذلك ؟

أكدت المرأة :

- نعم سيموت إن فحصته بالسماعة .

و أكد المريض ذلك :

- نعم سأموت .

بدأ أحمد يشرح لهما شرحاً مملاً بأن هذه السماعة مصنوعة من المعدن و ليس بها أية مادة سامة و ليطمأن المريض و زوجته وضع السماعة على صدره . لكن الزوجة بقيت على موقفها .

- دكتور سيموت إن فحصته .

لم يأبه باعتراضها بل مد يده ليضع السماعة على صدر المريض ، فتوسل له المريض :

- أرجوك دكتور سأموت .

ومنعه أن يضع السماعة .
تصاعد غضب أحمد و حاول أن يضع السماعة بالقوة على صدر المريض إلا أن الزوجة انقضت على زوجها و غطت صدره . صرخ أحمد بها و هددها بالشرطة . حاولت أن أتدخل بالأمر فسألت المريض و زوجته عن سبب مخاوفهما غير المبررة . شرحت الزوجة أنهم راجعوا شيخاً فأخبرهم أن الرجل سيموت إن فحصه الطبيب بالسماعة .
قهقه الدكتور أحمد ساخراً و حسبته وجد الفرصة مواتية ليلقي على المريض وزوجته محاضرة عن العلم و ضرورة مكافحة الخرافات و الخزعبلات . لكنه لم يفعل فربما وجد أنه من الأفضل أن يعطيهما درساً عملياً بأن يفحص الزوج ليثبت كذب الشيخ . وضع السماعة على أذنيه و اقترب من المريض الذي عاد يتوسل هو و زوجته لكن نظرة أحمد القاسية منعتهما من الكلام و قبل أن يهم بوضع السماعة على صدر المريض ،
توسل المريض لآخر مرة :
- سأموت .
و أكدت الزوجة :
- سيموت .
حاولت الزوجة التملص من الممرضتين اللتين تحتجزانها بناءاً على طلب الدكتور أحمد . ثم بلحظة واحدة حدث كل شيء . فما إن وضع أحمد السماعة على صدر المريض حتى شهق المريض شهقة كبيرة و علا الزبد فمه . ارتبك أحمد و لم يدري ماذا حدث . لكنني أدركت على الفور أن قلب الرجل قد توقف فبدأت سريعاً بمحاولة إنعاش لكنها لم تفلح . لقد مات . انقضت المرأة على زوجها و عانقته و هي تصرخ و تولول .
أما أحمد فقد صرخ :
-إنه يمثل ابتعدي .
صفع المريض على وجهه لكن المريض لم يستجب لأنه مات . فصار يصفعه بقوة على خده ذات اليمين و ذات الشمال .و نشبت معركة بينه و بين الزوجة التي كانت تولول و تدعو اللّه أن لا يوفقه .
بصعوبة استطعنا السيطرة على أحمد ، الذي كان يصفع المريض علّه يستيقظ ، بينما التصقت الزوجة بسرير زوجها و هي تنتحب وتتهم أحمد بأنه قتل زوجها . أخذنا أحمد إلى غرفة فارغة ، كان يحاول الهرب من بين أيدينا ، و هو يصرخ :
- هذه خزعبلات ، العلم لا يعترف بالخرافات .
أعطيته حقنة مهدأ و تركته لينام قبل أن ننقله إلى بيته ، لقد فقد عقله تماماً
....

في اليوم التالي ، و كما هو متوقع ، كان حديث المشفى ما حدث في قسم الإسعاف ، و كالعادة تباينت الآراء بعضها ألقى اللوم على أحمد ، و بعضهم رفض تصديق القصة ، لكن الأكثرية رأت أن ما حدث معجزة ربانية تتحدى البشر و العلم ، حتى طارق كان من أنصار هذا الرأي و اعتبر أن هذا أكبر عقاب يمكن أن يناله الدكتور أحمد على إلحاده ، قلت له ساخراً :

- أرى أنك صرت رجل دين ؟!
- و هل كنت تظنني ملحداً ؟!

قلت له :

- إن ما حدث ليس خارج العلم .

قال :

- صرت تتحدث مثل صديقك الذي فقد عقله .

صححت له :

- أولاً هو ليس صديقي ، بل زميلي في العمل . ثانياً أنا أتحدث عن العلم بشكل مختلف عنه . أنا لا أغرق في المعجزات و الروحانيات مثلك و لا أغرق في المادية مثل أحمد .

أخذت رشفة من الشاي و لاحظت أن كل الأطباء قد بدءوا ينصتون ، فتابعت حديثي :

- أولاً إن التفسير العلمي لما جرى بسيط جداً ، لقد توقف القلب المتعب بسبب تنبيه العصب المبهم .

وافق الجميع و أكد طارق أن هذا لا خلاف حوله . لكن الخلاف هو ، لم توقف هذا القلب ؟ نحن نسمي ذلك معجزة و أنت تسميه تنبيه مبهمي .

ربما كان الخلاف ينحصر في تسمية الأشياء فقط ، لكن أحب أن أُسمعك وجهة نظري إلى النهاية . إن العقلية العلمية التي يتحدث بها الدكتور أحمد هي نتاج عصور النهضة في أوربا . لقد أحلوا ديناً جديداً ، هو العلم ، مكان الأديان السماوية . فصار منوطاً به أن يقدم تفسيراً لكل الظواهر التي يعيش بها الإنسان ، كما تم تحميل العلم أحلام الخلاص السماوية السابقة ، فبدل أن يتم الخلاص من الفقر و الجوع و المرض بالتقوى و التقرب من الإله ، ادعت هذه الروح العلموية أن ذلك مرتبط بالعلم . قالت العلم سيحل جميع مشاكل البشرية . لكن تبين فيما بعد أن ذلك وهم . ازداد الفقر في العالم المعاصر و سُخرت الإنجازات العلمية لغير صالح البشر . فالانشطار الذري الذي كان من الممكن أن يولد طاقة تنير الجبال و الوديان و تبرد الصحاري و تدفأ القطبين المتجمدين بدل عن كل ذلك تحول إلى قنبلة نووية و أسلحة فتاكة أبادت كثيراً من البشر و تهدد اليوم البشرية بالفناء .

قاطعني طارق سائلاً :

- إلى ما ترمي ؟
- أرجوك دعني أتم كلامي لقد ثبت وهم العلم . تفاقمت مشاكل الظلم وزادت عذابات البشر بسببه . ثم أتى بعض العرب فنسخوا الروح العلموية وتبنوها بشكل أعمى أقرب إلى الابتذال فهي لا تعترف إلا بالمحسوسات . أما غير المحسوسات فهي خارج الحساب العلمي حسب العلمويين العرب كما يصفهم المثل العربي : لا يصدق الـ ..... حتى يرى .

غرقوا في الضحك . انتظرت حتى هدأت موجة الضحك . فتابعت :

- لذلك فهم لا يدخلون مشاعر الإنسان و لا أفكاره و لا معتقداته في حساباتهم فهم يخطئون دوماً . إن هذا المريض آمن أن السماعة ستسبب موته فمات . هل هذا مستغرب ؟!

و في النهاية هناك الكثير من المربعات البيضاء التي ما زالت مجهولة ولم تقتحمها المعرفة . من يستطع أن يقول لي كيف يعمل جهاز المناعة ؟ إن ما نعرفه اليوم هو مجرد خطوط عامة . مثلاً الثآليل الشائعة كلكم يعلم أن أهم طرق علاجها هي طريقة الإيحاء النفسي . ما هي آلية ذلك ؟ لا أحد يعرف . كيف يتم القضاء على جسم مادي هو الفيروس المسبب للثآليل بطاقة روحية غير مادية . يذهب الطفل إلى الشيخ فيقرأ له بعض الآيات القرآنية . ثم يقص باذنجانة أمامه . أو يربط سنبلة قمح على الثؤلول فيذبل الثؤلول و يزول . هل هذا خارج العلم ؟ الجواب لا . لكنه خارج طريقة التفكير التي تساوي العلم بالدين .

كانت الساعة قد اقتربت من التاسعة صباحاً فصفق طارق بيديه معلناً انتهاء المحاضرة وداعياً الجميع للذهاب إلى أعمالهم في المشفى . ارتدى الأطباء لباسهم الأبيض و غادروا الغرفة و تأخرنا أنا و طارق قليلاً . قال :

- احترت بأمرك .
- لم ؟

قال :

- هذه أول مرة أراك تتحدث بهذا العمق و بهذه الجدية .
- و هل كانت أحاديثي السابقة تافهة ؟
- لا و لكنك انتقلت من الحديث عن أبي خالد إلى الفلسفة .

قلت :

- حسب الظروف . لكني أجد الحديث عن أبي خالد أكثر إمتاعاً .

نهضنا لنذهب إلى اجتماع القسم الذي دعانا إليه رئيس القسم بواسطة الإذاعة الداخلية للمشفى و نزلنا الدرج على مهل لأن المصعد معطل كالعادة .



السيرة الذاتية للكاتب د. ثائـــر دوري



د. ثائر دوري

كاتب و طبيب بشري

الجنسية: سوري

كتب مقالات سياسية في العديد من الصحف العربية و مواقع على شبكة الإنترنت.

الأعمال المنشورة:

نقد النخب مسرح سعد اللّه ونوس كمثال (دراسة نقدية) .

لعبة الكراس الموسيقية (مسرحية)

له مجموعة قصصية منشورة على موقع القصة العربية .
http://arabicstory.net/index.php?p=author&aid=433

له موقع شخصي علمي خاص بالأمراض الجلدية:
http://www.geocities.com/dermatol2003/

البريد الإلكتروني: s-dori@scs-net.org